

دراسة نقدية لكتاب "مفهوم الزمن في الفكر العربي الإسلامي المعاصر" لمؤلفه الدكتور عبد الرزاق قسوم

أ. عبد الوهاب خالد

فرع الفلسفة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية -

جامعة باتنة



طالعنا دار البصائر بالجزائر العاصمة هذه السنة 2005م بكتاب متميز المضمون لما يشع به من أفكار فلسفية نيرة تعكس المستوى الفكري والفلسفي الراقين لصاحبه الدكتور عبد الرزاق قسوم، أحد أعمدة الفكر الفلسفي في الجزائر والوطن العربي، وهو خريج الجامعة الجزائرية في مرحلة التدرج، حيث تحصل على شهادة الليسانس الأولى في الأدب، والثانية في الترجمة، والثالثة في الفلسفة.

- دراسة الأصول والتأثيرات والمقارنات) والذي يضم بين دفتيه إحدى القضايا المرتبطة ارتباطا وثيقا بالفكر العربي الإسلامي على مر التاريخ، والمتمثلة في أهمية الزمن في الحضارة العربية الإسلامية، ولأجل ذلك يعد هذا الكتاب محاولة جادة لإبراز أهمية الزمن في حياة الإنسان الفكرية والواقعية من خلال اهتمام مختلف التيارات الفكرية في الفكر العربي والإسلامي المعاصر على اختلاف مشاربها الفكرية أدبية كانت أم فلسفية. ومما يزيد هذه المحاولة أصالة وجدة هو أن الباحث الأستاذ عبد الرزاق قسوم يجمع بين التكوين الفلسفي والإدراك التاريخي لأهميات القضايا الفكرية للفكر العربي والإسلامي، حيث تجاوز الطرح الكلاسيكي للمفاهيم الفلسفية والذي لا يتعدى السرد التاريخي لها، إلى استقراء الأبعاد المختلفة للمفاهيم الفلسفية كمفهوم الزمن على ضوء الألوان الفكرية والأدبية التي تناولته، بغرض الوصول إلى استنتاج العبر والقيم التي يحتاجها الإنسان العربي المسلم في فكره وواقعه.

يقع هذا الكتاب في مائتين واثنتين وثمانين (282) صفحة، ويتكون من مقدمة وأربعة أبواب كبرى وخاتمة، وقد جاء في مقدمة المؤلف قوله "فكرة الوقت في الفكر العربي المعاصر تعد

كما حاز على شهادة الماجستير في الفلسفة من جامعة القاهرة بمصر، وشهادة الدكتوراه من جامعة السربون بفرنسا. هذه المؤهلات العلمية والخبرة المهنية والمسؤوليات الإدارية والبيداغوجية والعلمية المتنوعة، تعكس مدى تنوع ثقافة الكاتب، وتميز فكره وفلسفته في الفكر العربي الإسلامي المعاصر. ولعل ما يؤكد ذلك البحوث والمقالات التي نشرها، والكتب التي صدرت له حتى الآن، منها: "عبد الرحمن التعلالي والتصوف"، "مفهوم الزمن في فلسفة أبي الوليد بن رشد"، "مدارس الفكر العربي الإسلامي - تأملات في المنطلق والمصّب" -، "تزييف قلم جزائري"، "مفهوم الزمن في الفكر العربي المعاصر" باللغة الفرنسية، "فلسفة التاريخ - قراءة إسلامية معاصرة" - "تأملات في معاناة الذات" وهو تحت الطبع.

أما هذا المصنف الجديد الذي بين أيدينا باللغة الفرنسية والموسوم:

(L'idée du temps dans la pensée Arabe contemporaine- etude des origines, des influences et des paralletisme)

والشار إليه في واجهة الكتاب باللغة العربية (مفهوم الزمن في الفكر العربي الإسلامي المعاصر)

واحدة من الموضوعات الشاسعة والعميقة من الوقت نفسه ... عند كل الشعوب، الوقت لعب ويلعب دورا هاما في تنظيم حياتهم الدينية والسياسية والاقتصادية" ص5. من خلال هذه الإشارة إلى أهمية هذا الموضوع الذي تناوله المؤلف، يحاول أن يجيب عن جملة من الإشكالات العالقة بمفهوم الزمن في الفكر العربي المعاصر منها ما يلي: ماذا ينبغي أن نفهم من الفكر العربي المعاصر؟ هل هو فكر فلسفي بكل تياراته؟ أم يراد به الفكر الديني الذي سائر التغيرات التي عرفها المجتمع الإسلامي؟ ما هي أصول هذا الفكر في تناوله لمفهوم الزمن؟ وما مدى تأثره بالفكر الدخيل خاصة منه اليوناني؟ أما محتويات الكتاب، فقد قسمها المؤلف إلى أربعة أبواب كبرى، لكل منها فصول، حيث ناقش المؤلف في الباب الأول من هذا الكتاب "الزمن في الفكر العربي الإسلامي" والذي قسمه إلى فصلين، تناول في الأول المسائل العالقة بمصطلح الزمن على ضوء تنوع العلوم عند العرب والمسلمين، حيث حاول في هذا الفصل تبيان كفايات تناول علماء العرب والمسلمين لمفهوم الزمن، حيث ركز بالتحليل لهذا المفهوم عند النحويين، واللغويين، والمؤرخين والشعراء.

ثم توقف في آخر هذا الفصل بشرح مفهوم الزمن في الفن والمسرح على ضوء الأغنية والقصة العريبتين. يخلص المؤلف الدكتور عبد الرزاق قسوم إلى خلاصة قيمة يستلها بقوله "إذا أردنا ضمان حضور الماضي، ومستقبل الحاضر، ينبغي أن نجنب الإنسان العربي من عدم العيش على هامش الزمن، بل يجب أن يساير وتيرة عصره" ص/ 49.

وفي الفصل الثاني يستعرض الكاتب مفهوم الزمن على مستوى الحركة أو الفعل، حيث يطرح إشكالية بالغة الأهمية، هل الإنسان العربي يعيش فعلا زمانه في عصر عرف متغيرات ومؤثرات؟ كما يشير الكاتب إلى أن تحليل سلوكيات المجتمع العربي الحالي على ضوء العوامل والمتغيرات المستجدة

على مستوى الحياة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، تقود إلى ملاحظة أن هذا المجتمع لا يعيش زمانه، ولعل هذا ما يوضح ذلك التصدع بين الإنسان العربي وتراثه، وكذا عدم تواصله مع روح العصر، كما تعكس هذه أيضا تصدع داخل المجتمع العربي، بين رؤيته النظرية والحياة العملية، وهذا التصدع انعكس على مختلف السلوكيات الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية. ونسب ذلك على حد تعبير المؤلف يعود إلى غياب قيمة الوقت في فكر واقع الإنسان العربي.

أما الباب الثاني فقد خصه المؤلف للمؤثرات الغربية على الفكر العربي المعاصر حيث قسمه إلى أربعة فصول، تناول في الأول المؤثرات الآتية للفكر اليوناني، وفي الثاني المؤثرات الآتية للفكر المسيحي، وفي الثالث المؤثرات الآتية للفكر الأوربي الجديد، وفي الرابع المؤثرات الآتية للفكر الأوربي المعاصر.

ويخلص المؤلف في نهاية هذا الباب إلى أن الفكر الذي يتلقى مختلف المؤثرات لا يعد فكرا تابعا ولا منحطا ولا خاليا من كل أصالة أو إبداع، كما يستطرد قائلا: "فكرنا العربي المعاصر مستمر في تلقي مؤثرات الفكر الإنساني بصورة عامة، وبصورة خاصة المؤثرات الغربية فيما يخص الزمن، لكن ذلك يمثل علامة تطور نزيه ينبغي المحافظة عليه" ص/ 103.

أما الباب الثالث فقد جاء بعنوان: "الزمن في الفكر العربي المعاصر" حيث افتتحه بمقدمة تدور حول الإشكالات المعاصرة العالقة بالزمن، والتي أدرجها في خمسة فصول، تناول في الأول الفلسفة المادية ومفهومها للزمن في الفكر العربي، وفي الثاني الاتجاه العقلاني العربي، وفي الثالث الاتجاه الروحاني العربي، وفي الرابع الاتجاه الوجودي والشخصاني في الفكر العربي، وفي الخامس والأخير الاتجاه العلمي العربي. ويخلص في نهاية هذا الباب إلى فكرة مفادها أن كل شيء نسبي في الزمن الذي نعيشه، وأن أي إنسان، أو باحث يمكن

دول العالم التي انحدرت من ثقافات قديمة تجد نفسها في مواجهة مع سرعة تطور العلم، والتقنية، والمناهج، والنقد التاريخي، والسوسيولوجي، والديني، والابستمولوجي ... ص: 252.

ويخلص في نهاية الخاتمة إلى القول أن دراسته هذه هي تبيان لحاضر المفكرين العرب في البحث عن حل لا يزال في طور التأليف والتكوين.

وخلاصة القول إن هذا الكتاب يعد مرجعا أساسيا في تاريخ الفكر العربي الإسلامي المعاصر، لكونه وثيقة تشفعها قمة المضمون الفكري والفلسفي والأدبي الذي يحملها في طياته، وكذا نوعية البيلوغرافيا التي يستند إليها، لكن ما يثير القارئ أثناء تصفحه لثنائيا هذا الكتاب، بعض اللبس المنهجي والمتمثل في عدم تطابق المحتوى مع عنوان الكتاب وذلك لاستخدام الكاتب لمصطلحات كالفكر العربي المعاصر، والفكر الإسلامي المعاصر، والفكر العربي الإسلامي المعاصر، للتعبير عن معنى واحد. وفي اعتقادنا أن هذه المصطلحات لها مدلولات معينة، لأن هناك الفكر الإسلامي الذي يعبر عن العالم الإسلامي قاطبة وهو بلسان قد يكون عربيا أو أعجميا، وهناك الفكر العربي الذي ينحصر في العرب المسيحيين والقوميين الذين يعبرون عن الفكر العربي البعيد عن الفكر الإسلامي، وهناك الفكر الذي يجمع بين المصطلحين العربي والإسلامي، وهذا لا يوجد إلا عند العرب المسلمين فقط، ولذلك ينبغي أن يكون هناك ضبط معرفي للمصطلحات، لاسيما وأن صاحب هذا الكتاب هو علم من أعلام الفكر العربي الإسلامي المعاصر يدرك تمام الإدراك الفروق الواردة بين هذه المصطلحات الثلاثة. لكن يبقى هذا الكتاب مرجعا أساسيا لكل الباحثين العرب والمسلمين، خاصة الشباب والمتطلعين لقراءة التراث العربي الإسلامي المعاصر قراءة نقدية تجديدية فاحصة تستند إلى الحجة التاريخية، تهدف إلى استلهام العبر خدمة لفكر وواقع الإنسان العربي المسلم.

أن يختار وضعيته في الفضاء، لكن ذلك لا يمكن له في الزمن، كما يخلص إلى تبيان المفهوم الحقيقي للزمن استنادا إلى دراسات بعض المفكرين العرب المعاصرين، حيث يميز بين إدراكين للزمن، إدراك الزمن الخارجي يكون عن طريق الحجة والبرهان، أما إدراك الزمن الداخلي فيكون مباشرا دون وسائط، وهو الزمن الروحي، ويعتبره الزمن الحقيقي.

أما الباب الرابع الذي أورده بعنوان "فكرة الزمن في مؤلفات الكتاب العرب غير الفلاسفة" فقد جزأه إلى فصلين، تناول في الأول مدرستي توفيق الحكيم وعباس محمود العقاد، وفي الثاني تناول المفكرين العرب الشباب المكونين في مدرسة الأدب، ولعل الغرض من استعراض هذا المفهوم على ضوء هذه المؤلفات هو تبيان ما تحمله من مادة خبرية غنية ومتنوعة بمصطلح الزمن، كما تعكس مختلف التيارات التي تنقسم إلى مدرسة الأدب، حيث نجد فيها العقلاني، والروحاني، والشخصاني، والمادي، وآخرون. هذه الأخيرة تجعل من مجلة الأدب مدرسة فكرية تعبر عن كل الاتجاهات في العالم العربي، والتي تفتح على التيارات الفلسفية.

وينتهي المؤلف كتابه هذا بخاتمة لخص فيها أهم الأفكار والآراء والنظريات التي عالجها والأهداف التي سطرها في منهجية الكتاب، حيث استهلها بقوله: "في نهاية هذه الدراسة نؤكد أن في تاريخ الفكر العربي الإسلامي نوعا من التواصل في إدراك المعنى المجرد للزمن، وهذا التواصل يتجلى بوضوح عند المفكرين العرب المعاصرين، بفعل استعمالهم لمفردات عربية جد غنية، والتي كانت موضوعا من أصوله لعدد من التأملات والتعريفات" ص: 251.

كما يتساءل عما يمكن استخلاصه من هذا البحث؟ حيث يجيب قائلا: "يقدم العالم العربي مبدئيا إلى أيامنا هذه تنوعا في الاتجاهات، وأكثر تعددا من تلك التي تقسم الغرب الأوروبي والأمريكي هذا من جهة، ومن جهة أخرى، من المؤكد أن كل

